

جدل النص والواقع



أيهمَا وَجَدَ أَوْلًا، الْبَيْضَةُ أَمُ الدَّجَاجَة؟ سُؤَالٌ أَرْزَلَيْ سِرْمَدِي لَا جَوَابَ قَاطِعًا لَهُ، فَالنَّاسُ فِي ذَلِكَ حَرْبَانَ، حَزَبَ الْبَيْضَةِ وَحَزَبَ الدَّجَاجَةِ. وَالْحَقِيقَةُ إِنْ وَجُودَ جَوَابَ قَاطِعَ حَاسِمَ فِي الْمَجَالِ لَيْسَ مِمَّا عَلَى الإِطْلَاقِ، إِلَّا لِمَحْبِي الْجَدَلِ الْمُصْرِفِ، طَالَمَا أَنَّ الْبَيْضَةَ وَالدَّجَاجَةَ مُوْجَدَتَانِ، وَطَالَمَا أَنَّنَا نَسْتَفِيدُ مِنْ وَجْهَهُمَا وَالْعَلَاقَةِ بَيْنَهُمَا فِيمَا يَنْفَعُ وَيَفْعِدُ. وَسَوَاءَ عَرَفْنَا أَيْهُمَا وَجَدَ قَبْلًا، فَإِنَّ ذَلِكَ لَنْ يَغْيِرَ مِنْ عَلَاقَتِنَا مَعَهُمَا فِي شَيْءٍ، فَسَوْفَ نَسْتَمِرُ فِي أَكْلِ الْبَيْضَةِ وَالدَّجَاجِ، وَفِي اسْتِيلَادِ الْبَيْضَةِ مِنَ الدَّجَاجَةِ، وَالدَّجَاجَةِ مِنَ الْبَيْضَةِ، وَسَوْفَ تَسْتَمِرُ الْعَلَاقَةُ (الْوُجُودِيَّةُ) بَيْنَ الْبَيْضَةِ وَالدَّجَاجَةِ طَالَمَا بَقِيَ وَجُودُهُ، وَطَالَمَا كَانَتْ هَنَالِكَ حَيَاةً، وَطَالَمَا كَانَتْ هُنَاكَ بَيْضَةً وَدَجَاجَةً.

أَحْجِيَّةُ الْبَيْضَةِ وَالدَّجَاجَةِ الَّتِي تَنْتَدِرُ بِهَا أَحْيَانًا، هِيَ ذَاتُهَا ذَاكُ السُّؤَالُ الَّذِي قَسَمَ الْفَلَاسِفَةَ إِلَى مَادِيِّينَ وَمُثَالِيِّينَ، وَمُزِيَّجٌ مِنَ الْأَثْنَيْنِ. أَيْهُمَا كَانَ قَبْلًا، وَبِالْتَّالِي أَيْهُمَا كَانَ حَرْثُومَةُ الْوُجُودِ الْأَوَّلِيِّ وَصَاحِبُ الْفَعْلِ فِي حَرْكَةِ هَذَا الْوُجُودِ، الْفَكْرَةُ أَمُ الْمَادَّةُ؟ بَنَاءً عَلَى إِجَابَةِ هَذَا السُّؤَالِ، انْقَسَمَ الْفَلَاسِفَةُ إِلَى حَرْبَيْنِ كَبِيرَيْنِ، وَانْقَسَمَ الْحَرْبَانِ إِلَى أَحْزَابٍ فَرْعَوْنِيَّةٍ، وَهَكُذا. وَبَنَاءً عَلَى أَفْكَارِ الْفَلَاسِفَةِ نَهَضَ الْأَيْدِيُّوْلُوْجِيُّونَ، وَمِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ خَرَجَتْ أَحْزَابٍ وَتِيَارَاتٍ سِيَاسِيَّةٍ. وَقَبْلَ ذَلِكَ انْقَسَمَ الْفَلَاسِفَةُ الْمُدَرَّسِيُّونَ فِي الْعَصُورِ الْوَسْطَى إِلَى إِسْمِيِّينَ وَوَاقِعِيِّينَ وَبَيْنَمَا جَاءَ التَّصُوْرِيُّونَ.

خلاصة القول، أنّ "أحجية البيضة والدجاجة هي ذاتها أحجية كثير من الأشياء التي نتعامل معها في هذه الحياة ربما بتجريد أكبر، ولكن بنية السؤال هي ذاتها، وأهمية الجواب أو عدمه هي ذاتها.

والحضارة العربية الإسلامية هي في مجملها حضارة (نـ)، بمثـل ما كانت حضارات مصر ووادي الراـفدين حضارات (أسطورة)، وحضارة العـصر هي حضارة (فعل)، وذلك وفقاً للمـحور الأساس الذي تقوم عليه هذه الحضارة أو تلك. وعلى ذلك، فإنّه من الطبيعي أن يكون (النـ) هو الشـغل الشـاغل لهذه الحضارة، وحوله ومنه وفيـه تدور كـافة النـشـاطـات وتنـبـيقـ كـافة الفـعـالـيـات التي أـنـتـجـتها وتنـتـجـها هـذـهـ الحـضـارـةـ، بمـثـلـ ماـ هوـ (الفـعلـ)ـ منـاطـ كلـ حـرـكـةـ فيـ الحـضـارـةـ الغـرـبـيـةـ المـعاـصـرـةـ.ـ مـَـنـ يـحـكـمـ حـرـكـةـ الـحـيـاـةـ منـ حـولـنـاـ،ـ النـصـ أـمـ وـاقـعـ وـآلـيـاتـ هـذـهـ الـحـيـاـةـ؟ـ قـبـلـ الإـجـابـةـ عـلـىـ هـذـاـ السـؤـالـ وـالـاسـتـرـسـالـ فـيـ الـحـدـيـثـ،ـ هـنـاكـ مـسـلـّمـةـ أـعـتـقـدـ أـنـّـهـاـ ضـرـورـيـةـ لـبـنـاءـ النـقـاشـ كـلـهـ،ـ أـلـاـ وـهـيـ أـنـّـهـ لـاـ النـصـ بـذـاتـهـ قـادـرـ عـلـىـ جـعـلـنـاـ نـسـتـغـنـيـ عـنـ وـاقـعـ الـحـيـاـةـ،ـ وـلـاـ وـاقـعـ الـحـيـاـةـ بـذـاتـهـ مـنـفـرـداـ قـادـرـ عـلـىـ جـعـلـنـاـ نـسـتـغـنـيـ عـنـ تـوجـيهـ مـحـورـ الأـسـاسـ فـيـ الـحـضـارـةـ التـيـ نـنـتـمـيـ إـلـيـهـ،ـ وـهـوـ النـصـ فـيـ حـالـتـنـاـ الـعـرـبـيـةـ إـلـيـهـ.ـ فـمـهـماـ بـلـغـ الزـهـدـ مـثـلـاـ بـأـحـدـهـمـ،ـ فـلـابـدـ لـهـ مـنـ أـنـ يـأـكـلـ وـيـشـبـ وـيـلـبـسـ وـيـسـكـنـ.ـ وـتـحـقـيقـ هـذـهـ الـاحـتـيـاجـاتـ لـابـدـ أـنـ يـكـونـ مـنـ خـلـالـ (ـمـارـسـ الـحـيـاـةـ)ـ شـاءـ أـمـ أـبـيـ،ـ وـلـيـسـ الـوقـوفـ خـارـجـهـاـ.ـ وـمـهـماـ بـلـغـ مـنـ انـغـمـاسـ الـمـقـبـلـ عـلـىـ الـحـيـاـةـ بـكـلـيـتـهـاـ مـنـ السـيرـ مـعـ عـجلـةـ الـحـيـاـةـ الـمـعـيـشـةـ،ـ فـلـابـدـ لـهـ مـنـ (ـمـعـنـىـ)ـ لـمـ يـفـعـلـ،ـ وـإـلـاـ كـانـ مـاـ يـقـومـ بـهـ مـجـرـدـ عـبـثـ وـدـائـرـةـ تـدـورـ دـوـنـ غـاـيـةـ أـوـ هـدـفـ.

منـ هـذـهـ الـمـسـلـّمـةـ نـسـتـطـيـعـ أـنـ نـخـرـجـ بـإـجـابـةـ أـولـيـةـ وـضـرـورـيـةـ لـلـسـؤـالـ الـمـطـرـوـحـ آـنـفـاـ حـولـ عـلـاقـةـ النـصـ بـالـوـاقـعـ،ـ أـوـ حـولـ عـلـاقـةـ مـحـورـ الـحـضـارـةـ الـمـنـتـمـيـ إـلـيـهـ بـالـوـاقـعـ الـذـيـ لـابـدـ أـنـ تـعـمـلـ هـذـهـ الـحـضـارـةـ فـيـ إـطـارـهـ وـضـمـنـ حدـودـهـ وـمـعـالـمـهـ وـدـوـافـعـ الـحـيـاـةـ فـيـهـ.ـ فـالـوـاقـعـ بـذـاتـهـ لـاـ مـعـنـىـ لـهـ دـوـنـ النـصـ الـمـحـددـ،ـ وـالـنـصـ بـذـاتـهـ لـاـ غـاـيـةـ لـهـ دـوـنـ الـوـاقـعـ الـمـهـيـمـ،ـ وـالـاثـنـانـ يـكـمـلـ أـحـدـهـمـ الـآـخـرـ.ـ فـالـثـبـاتـ طـبـيـعـةـ النـصـ،ـ وـلـكـنـهـ يـكـتـبـ الـمـرـوـنةـ وـالـحـيـوـيـةـ عـنـ طـرـيقـ الـوـاقـعـ الـذـيـ هـوـ مـتـحـركـ بـطـبـيـعـتـهـ،ـ وـلـكـنـهـ يـكـتـبـ الـمـعـنـىـ الـثـابـتـ مـنـ النـصـ؟ـ أـيـهـماـ كـانـ أـوـلـاـ،ـ هـلـ جـاءـ النـصـ ثـمـ حـدـدـ الـوـاقـعـ،ـ أـمـ إـنـ"ـ الـوـاقـعـ أـفـرـزـ النـصـ وـهـذـاـ فـيـ الـحـقـيقـةـ سـؤـالـ لـاـ مـعـنـىـ لـهـ حـيـثـ إـنـّـهـ لـاـ يـقـدـمـ وـلـاـ يـؤـخـرـ فـيـ الـعـلـاقـةـ الـجـدـلـيـةـ بـيـنـهـمـاـ.ـ وـنـحنـ حـيـنـ نـتـحـدـثـ عـنـ النـصـ،ـ فـإـنـ الـمـعـنـىـ مـنـصـرـ إـلـىـ تـلـكـ الـنـصـوـصـ الـتـيـ أـنـتـجـهـاـ الـبـشـرـ،ـ أـمـ النـصـ الـدـينـيـ أـوـ إـلـهـيـ الـمـبـاـشـرـ فـهـوـ حـالـةـ اـسـتـثـنـائـيـةـ لـاـ تـدـخـلـ فـيـ هـذـاـ التـحـلـيلـ بـشـكـلـ كـامـلـ.ـ وـعـنـدـمـاـ يـقـالـ ذـلـكـ،ـ أـيـ إـنـ"ـ النـصـ إـلـهـيـ الـمـبـاـشـرـ لـاـ يـدـخـلـ فـيـ التـحـلـيلـ بـشـكـلـ كـامـلـ،ـ فـإـنـ"ـ الـمـقـصـودـ مـاـ هـوـ مـعـرـفـ لـكـلـ أـحـدـ،ـ فـإـنـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ لـاـ يـرـسـلـ الرـسـلـ (ـعـ)،ـ وـلـاـ يـوـحـيـ بـكـلـمـاتـهـ الـمـبـاـشـرـ إـلـيـهـمـ إـلـاـ عـنـدـمـاـ تـكـونـ الـبـشـرـيـةـ فـيـ حـاجـةـ إـلـىـ هـذـهـ الـكـلـمـاتـ وـالـتـوـجـيهـاتـ فـيـ حـالـةـ الـحـيـرـةـ وـالـبـحـثـ عـنـ مـعـنـىـ.

وبـدرـاسـةـ الـطـرـوـفـ الـتـيـ سـبـقـتـ ظـهـورـ سـيـدـنـاـ مـحـمـدـ (ـهـ)،ـ أـوـ طـوـالـعـ الـبـعـثـةـ الـمـحـمـدـيـةـ،ـ كـمـاـ يـسـمـيـهـاـ الـأـسـتـاذـ عـبـاسـ مـحـمـودـ الـعـقـادـ،ـ تـتـبـيـنـ لـنـاـ هـذـهـ الـحـقـيقـةـ.ـ فـالـكـلـلـ فـيـ تـلـكـ الـفـتـرـةـ،ـ مـنـ عـرـبـ وـثـنـيـنـ وـأـهـلـ كـتـابـ،ـ كـانـواـ يـعـلـمـونـ أـنـ"ـ نـبـيـاـ"ـ عـلـىـ وـشـكـ أـنـ يـبـعـثـ،ـ لـدـرـجـةـ أـنـ يـهـودـ الـمـدـيـنـةـ كـانـواـ يـهـدـدـوـاـ بـهـ الـأـوـسـ وـالـخـرـجـ،ـ وـلـدـرـجـةـ أـنـ"ـ سـلـمـانـ الـفـارـسـيـ (ـرـضـ)"ـ خـرـجـ مـنـ دـيـارـهـ حـتـىـ اـسـتـقـرـ بـهـ الـمـقـامـ فـيـ يـشـبـ عـبـدـاـ"ـ رـقـيـقاـ"ـ فـيـ اـنـتـظـارـ النـبـيـ

الموعود. المراد قوله بإيجاز هنا هو أَنَّه حتى في النص الإلهي المباشر القادر بواسطة النبي مرسلاً، فإنّ^٣ الواقع وحركة الحياة ليست بعيدة عن ذلك، إذ إنّ حركة الحياة هي التي أوجبت في النهاية إرسال الرسل وتلقي كلمات الله سبحانه وتعالى المباشرة. يأتي هذا النص، ويأتي ذلك التدخل الإلهي المباشر لإسباغ المعنى على حركة فقد المعنى، وواقع فقد البوصلة بحيث تعود العلاقة السليمة بين النص والواقع.

وعند النظر إلى الحضارات عامة، نجد أنّها تكون في أوج زخمها وفعاليتها حين تكون العلاقة الجدلية بين محورها الذي تدور حوله وبه، وبين حركة الحياة ذاتها قائمة، وتبدأ هذه الحضارة في الانحدار حين يطغى جانب من المعادلة على الجانب الآخر، وبذلك تضيع العلاقة أو تتشوه. وفي حضارتنا العربية الإسلامية، كان الإزدهار والارتقاء حين كان النص مفتوحاً على حركة الحياة، يستوعبها ويوجهها في آن واحد، هذه الحضارة أعطتنا كل ما نفترض به اليوم من نتاج حضاري، من فلسفة وفقه وعلم كلام وشريعة وعقيدة. وبدأ الانحدار حين أغلق النص، واكتفى بالآليات الذاتية تاركاً حركة الحياة تجري على أعنقتها، فكانت النتيجة ذلك الفج العميق بين منتجات النص المدرسية (السكوناتية) التي لا علاقة لها إلا بذاتها، وبين إفرازات الحياة التي لا تجد لها صابطاً ولا محدداً، فتبحث عن كل ذلك هنا أو هناك، في نص شعبي أو نص خارجي أو غير ذلك، حيث إنّ النص المؤسس قد وضع في حالة من إنتاج الذات، وهو ضخم لا ريب، ولكن لا علاقة له بما يجري فعلاً بين البشر وعلى مسرح الحياة. والمشكلة الأعوچ في كل ذلك هي في انعكاس مثل هذه الحالة على ذات الإنسان المنتهي للنص وحضارته. فقد هذا الإنسان توازنه وانسجامه مع نفسه، وأصبحت الذات الواحدة عدة ذوات لا رابط بينها. فهي، أي هذه الذات، تتعامل في هذا الاتجاه بالآليات وذهنية تختلف عن الآليات والذهنية المتبعة في ذلك الاتجاه، وهذه حالة نعيشها حتى اليوم. مثل هذه الازدواجية في الذات، وآثارها المعطلة للحركة الفاعلة، لا نجدها في الحضارة عندما تكون في حالة الإزدهار، وعندما تكون معادلة النص والواقع سليمة، كما لا نجدها عند إنسان الحضارة الغربية المعاصرة، الذي قد يعاني من مشاكل وإشكاليات ذاتية عديدة، ولكن الازدواجية ليست أحدها، فهو منسجم مع ذاته في هذا المجال. وكيف تكون الصورة واضحة، فإنّ^٤ الازدواجية المتحدث عنها ليست نوعاً من النفاق أو المจำلة الاجتماعية التي قد تفرض علينا ارتداء مختلف الوجوه والأقنعة في مختلف المناسبات، ولكنها معاناة ذاتية حقيقة، وانفصام ذاتي ملموس، ناتج عن افتقاد المعيار المناسب للحالة المناسبة.

إنّ^٥ انقطاع العلاقة بين طرفي المعادلة خلق لدينا عالمين شبه منفصلين، إن لم يكونا منفصلين على الاطلاق، هما عالم النص وتوليد النص من النص وفق آليات معرفية معينة، وعالم الواقع المتحرك الذي لا يعرف الثبات خاصة في مثل عالم اليوم. بكلمات أخرى، أصبح لدينا عالم (المفروض) في مقابل عالم (الموجود)، وال العلاقة بين العالمين مفقودة. ويجد الإنسان نفسه ممزقاً بين هذين العالمين: فهو لا يستطيع الانفكاك من عالم (الموجود)، لأنّ فيه معاشه وانتماءه إلى بشر لا يستطيع عدم التعامل معهم،

كما أزّه لا يستطيع الانفكاك من عالم (المفروض)، لأنّ المفترض أن يكون فيه انتماًه وهو ينحو ذلك، فكيف يكون الوضع؟ لابد من ازدواج الذات إلى ذاتين لكل منها قوانينها وآلياتها الخاصة، ولا علاقة بين الاثنين. فتجد أحدهم مثلاً يعمل في بنك وهو موقن في أعماق ذاته بحرمة العمل في مثل هذا البنك، ولكنه لا يستطيع إلا أن يعمل فيه، فهو لا يستطيع أن يحيا دون طعام وشراب، دون مسكن وملبس، وزوجة وأطفال، وعلى ذلك قس.

لقد كان الواقع وحركته، والحياة زخماً، مرجعاً لسلفنا ومنتجي تراثنا حين كانت الحضارة العربية الإسلامية في حالة صعود وازدهار، وضع كل ذلك حين كان الانفصال عن هذا الواقع. هذه المنهجية، أي الالتزام بسيورة الواقع، هي الوشيعة الحقيقة التي تربطنا بترااثنا وأسلافنا، وليس ما أنتجه، لأنّ ذلك النتاج مرتبط بواقع مختلف وظروف لا نعيشها اليوم، كما أنّ ظروفنا لن يعيشها مَن سيأتي بعدهنا. مشكلتنا اليوم، ببساطة، هي أزّنا نلزم أنفسنا بما أنتجه ونترك منهجية كيف أنتجه، ونعتقد بذلك أزّنا قد حافظنا على التراث، مع أزّنا بذلك فقد التراث حقيقة، ناهيك عن واقعنا الذي نعيشه. قد يقول قائل هنا إنّ في حديثك رائحة الدعوة إلى ترك النص جملة وتفصيلاً، وهذا في الحقيقة قول غير سليم. فحتى لو أردنا ترك النص افتراضاً، فإنّنا لا نستطيع، فهو منا ونحن منه، طالما كنا منتمين إلى الحضارة التي أنتجه. المشكلة أزّنا يجعل كل النصوص في حالة من القداسة ما أنزل الله بها من سلطان، فليس هناك ما هو مقدس إلا كلمات الله المباشرة في كتابه الحكيم، وما بلغه عنه رسوله الكريم، أما عدا ذلك فإنتاج بشري يستفيد منه ونستشيره، ولكنه غير ملزم. والنصوص المقدسة السامية، من قرآن كريم وسنة مطهرة، ذات عمومية واتساع تجعلها قادرة على استيعاب الحياة وتغيراتها في كل الأزمنة والأمكنة، عندما تكون موجهة إلى الغاية أو المقاصد التي أرادها صاحب النصوص، ألا وهي، بشكل عام، خلافة الإنسان لربه على هذه الأرض. وفي ذلك، أي الاستخلاف، معيار لبني الإنسان في التفريق بين ما هو صالح وما هو طالح في فهم مقاصد المشرع لخلقه. فكل ما يؤدي إلى عمارة الأرض وإثراء الحياة عليها هو لا ريب جزء من إرادة رب جلت قدرته، لأنّ ذلك مرتبط بالغاية النهائية، ألا وهي الاستخلاف، وعكس ذلك صحيح.

المشكلة إذن ليست في النصوص المقدسة، التي ما كانت إلا لإعطاء المعنى وتوجيه الإنسان، ولكنها في فهم هذه النصوص بما يتوافق مع الغاية على هذه الأرض، ألا وهي الاستخلاف الذي مجاله ذات الواقع وذات الحياة. المشكلة أخيراً، هي حين يجعل أي فهم بشري اجتهادي لهذه النصوص الخالدة والثابتة هو المقدس وتنسى قدسيّة النص ذاته بوعي أو دون وعي. لقد كان الأولي واعين بهذه المسألة.